افتتاحية العدد

Editorial

بقلم رئيس التحرير
د. سعيد بنتاجر
By Editor: Dr. Said Bentajar

صار معظم المفكرين، إن لم نقل كلهم، يعتقدون بنسبية المعرفة الإنسانية، بما فيها المعرفة العلمية. وليس المقصود بهذه النسبية محدوديتها بالنسبة لما يجب أن يُعرَف فعلًا، بل أيضًا ارتباطها بأمور أخرى غير معرفية. وقد اجتهد الفلاسفة والمفكرون في بيان هذه الأمور التي ترتبط بها المعرفة، منهم الإبستيمولوجيون الذين تحدثوا عن العلاقات الداخلية المشكلة للمعرفة، مثل العلاقة بين الأطر النظرية والمعطيات الحسية أو التجريبية؛ ومنهم فلاسفة نظروا في علاقات خارجية متعلقة بذاتية العارف أو العالم، اعتقاداته وأغراضهم ومصالحه وعلاقاته، أو بالظروف الاجتماعية المحيطة به من جهة اللغة والسلطة والتمويل وغير ذلك. ولعل حاصل ما يستفاد أن المعرفة، بما فيها المعرفة العلمية، ليست بتلك الموضوعية ولا النقاء الذي يتصور في بادئ الأمر.

وتمثل المعرفة التي أنتجها المستشرقون حول التراث الإسلامي نموذجًا لارتباط الإنتاج المعرفي بسلط ومصالح وأيديولوجيات ورؤى مسبقة، وهذا ما أبرزته العديد من الدراسات النقدية التي رامت مراجعة الإنتاج الاستشراق في الغرب نفسه. ولا يفيد هذا الحكم التبخيس من الإنتاج الاستشراقي مطلقًا ولا اتهام المستشرقين في نياتهم جملة، بقدر ما يراد منه تقديم المثال عن ارتباط المذكور للمعرفة بالعلاقات التي أشرنا إليها سابقًا. ولذلك، لا بُدَّ من الانتباه إلى الأحكام المرسلة التي ترمي الاستشراق جملة، قديمه وحديثه، بالنزعة الاستعمارية والارتباط بالنزعة المركزية الغربية وصناعة "الشرق" صناعة. المعلوم أن كثيرًا من الدراسات الاستشراقية للإنتاج المعرفي الإسلامي إنما استمدت قوتها من المناهج المستجدة التي استعملت، وهي المناهج التي لم تكن معهودة في الممارسة المعرفية الإسلامية، وهي مناهج مستمدة من تطورات الفلسفة والعلوم الإنسانية في الغرب.

وظل سؤال فائدة هذه المناهج وكيفية الاستفادة منها وتبيئتها سؤالًا مُلِحًّا في الفكر الفلسفي العربي المعاصر. ومع أن مجهودات قد بُذلت قديمًا وحديثًا، ولا زالت تبذل، في النظر الفلسفي والإبستيمولوجي في المعرفة الإسلامية، إلا أنَّ كثيرًا من هذه المجهودات قد نظرت، وبتأثير من توجهات في هذا الاستشراق الغربي، إلى هذه المعرفة نظرة خارجية جامدة، واعتدت بأدوات منهجية متنوعة بداعي مواكبة تطورات الفلسفة والعلوم الإنسانية، والواقع أنها لم تكن إلا تجريبًا لمقررات فلسفية وعلمية إنسانية أنتجت لغيرها، قلما بذل مجهود حقيقي لدراستها باستشكال فلسفي وإبستيمولوجي أصيل مع الاعتداد بالأدوات المنهجية المناسبة.

لقد صار العبء البحثي على الباحثين الجدد في الفلسفة والعلوم الإنسانية والإنسانية مزدوجًا: فبالإضافة إلى المجهود التقريبي في دراسة المناهج والنظريات الفلسفية والعلمية الإنسانية الغربية واستعراضها في ثقافتنا، صار من المطلوب إخضاع هذه المناهج والنظريات للنقد والتقويم الداخلي والخارجي، خاصة فيما تعلق بملاءمتها للمعرفة الإسلامية. ولا يُراد بهذا جعل "المعرفة الإسلامية" أو "الثقافة الإسلامية" رقابة على تدفق المعارف الفلسفية والإنسانية على ثقافتنا، بقدر ما تعني الوعي بأهمية التبيئة، بغض النظر عن منطلقا وغايات هذه التبئية؛ كما صار مطلوبًا من الباحثين في العلوم الإسلامية دراسة المناهج والنظريات الغربية التي أنتجت في دراسة موضوعات شبيهة بالموضوعات المدروسة في العلوم الإسلامية، واستمداد ما ظهرت مناسبته منها. ولا تقتصر الاستفادة من المعرفة الفلسفية والعلمية الإنسانية الغربية فيما يسمى بعلوم الآلة، بل يمكن الاستفادة، جزئيًا على الأقل، من الكثير من النظريات والمذاهب والأفكار.

تدور أغلب مواد هذا العدد على الاستشراق، وهي دعوة إلى الدراسة الجدية والقريبة من الموضوعية للإنتاج الاستشراقي بعيدًا عن الخطأ الذي نزعم أن المستشرقين سقطوا فيه، أي التحيز والارتباط بالأيديولوجيا والسلطة والمصلحة، وذلك من أجل الفهم الجيد لهذا الإنتاج، والاستفادة مما صح منه، وتبين أخطائه وتبيينها. وفاتحة هذا العدد مقال للمفكر التونسي احميدة النيفر راجع فيه أفكار المستشرقين الفرنسي "لوي رين" في كتابه "المرابطون والإخوان: دراسة عن الإسلامي في الجزائر" والألماني "توماس باور" في كتابه "ثقافة الالتباس: تاريخ الإسلام من منظور مختلف"، محاولًا الإجابة عن سؤال: كيف يفهم الآخر الإسلام؟ بالإجابة عن سؤال وسيط هو: هل المطلوب عند المستشرق هو فهم عالم الإسلام أم امتلاكه؟ وهو ما يعني ربط السؤال المعرفي بالمصلحة، كما فعل كبار نقاد الاستشراق. وقد انتهى بعد

فحصه للكتابين المذكورين إلى ارتباط عمل لوي رين بالأطروحة الاستعمارية و"رسالتها الحضارية" مع اعتبار الإسلام غيرية رغم تقدير نسبي للجزائريين، ودعوته إلى سياسات جديدة لتحقيق الامتلاك؛ واعتدال المستشرق الألماني المعاصر في فهم التعدد في تاريخ الإسلام، وإقراره بأن التعدد وجد في التراث النظري والعملي الإسلامي إلى حين اللقاء بالحداثة الغربية الامبريالية، التي أثرت في هدم تراث التعدد والتسامح عبر تبني الطبقة المتوسطة والمتعلمة في المجتمعات العربية في الحقبة الكولونيالية للمنهج الايديولوجي الغربي. و"هذا التأثر بالغرب هو السبب الذي نشأ عنه الإسلام السياسي ودفع الإسلاميين إلى الدعوة إلى ضرورة "أسلمة الإسلام"، أي الدعوة إلى أدلجته تأثرًا بمنهج الغرب. وقد استعمل المفكر النيفر مفهوم الحدود في علاقته بالاستشراق، اعتباره مجازًا يفيد حدودًا في جغرافيا تصورية وثقافية تتعين في الأفراد والجماعات، للتمييز بين المقاربتين في تناول الإسلام بين المستشرقين، وأهمية التفاعل الانساني الخالي من الغيرية.

ومع أن الصورة التي قدمها النيفر للاستشراق الألماني المعاصر إيجابية، إلا أن الباحثة ظِلال الجنابي قد خففت منها، وإن لم تنفها، في دراستها الموسومة بـ"**نقاش حول المرأة المسلمة في البحوث العلمية الألمانية**"، الذي خصصته لاستعراض التصورات التي يعبر عنها الباحثون الألمان تجاه قضايا المرأة المسلمة في الغرب عامة، وفي ألمانيا خاصة، وهي تصورات تتغذى بالصور النمطية المتداولة، وتغذيها في نفس الوقت. وتشير الباحثة إلى أن الكتابات والأبحاث في مجال العلوم الاجتماعية تتراوح في النظر إلى الإسلام، وخصوصا فيما يتعلق بمعاملة المرأة المسلمة ولباسها، بين موقف شكي وموقف معادي، بحيث يفهم بأنه لا يمكن التوفيق بين الإسلام والحياة الغربية الحديثة. ورغم انتشار الأحكام السلبية والنمطية عن المرأة المسلمة والإسلام بوجه عام، والذي استعرضته الباحثة باقتدار وبنصوص مقتبسة من هذه الأبحاث، إلا أن الباحثة توقفت عند مواقف منصفة في الأكاديمية الغربية، سواء من قبل التيارات الموسومة بالإنسانوية أو توجهات نسائية معتدلة. وقد رأت الباحثة أن هذه المواقف الإيجابية في تزايد في السنوات الأخيرة، وإن كانت ضعيفة إلى حد الآن.

وفي مثال للتأثير الخفي للنمط الاستشراقي في دراسة النص المعرفي التراثي، وإن أشير إليه إشارة محتشمة، وجه الباحث عبد الله بكيري النقد إلى بعض المناهج التي جرى التوسل بها لدراسة التصوف والنص الصوفي، وذلك لأنها لا تناسب موضوعها، وتؤدي بالتالي إلى نتائج

خاطئة. ودعا إلى تجديد النظر في النص الصوفي بتجاوز المقاربة التقليدية، واعتماد منهج علمي يراعي خصوصية النص الصوفي باعتباره نصًّا عرفانيًا روحيًا وكذا الانتباه إلى ظروفه التاريخية والبنية العقلية والاجتماعية التي كتب فيها. وقد اقترح الباحث الاعتماد في الدراسة العلمية للنص الصوفي إلى أربعة أطر أو حدود معرفية، وهي: حد تعريفي، وحد المصطلح، وحد النَفَس، وحد الانتقال من العبارة إلى الإشارة.

وليس بعيدًا عن المراجعات الجديدة في الدراسات الاستشراقية، قدم الباحث بدر الحاكيمي قراءة في كتاب "دراسات حول نظم السور المكية" للباحثة الألمانية "أنجليكا نويفرت". وقد استعرض فيها الباحث مضامين هذا الكتاب التي عبرت عن توجه جديد في الدراسات الاستشراقية في النظر إلى سور القرآن. وذلك لأن هذه الدراسات قد درجت على اعتبار سور القرآن، والسور المكية منها بوجه خاص، وحدات مفككة ومترهلة، بينما تؤكد الباحثة "أنجليكا نويفرت" على وحدتها وتماسك نظمها. وقد كان لمنهجها البنيوي والتاريخي وتمكنها من الدراسات القرآنية والنتائج التي وصلت إليها نتائج مهمة في حقل الدراسات القرآنية في الغرب، كما يؤكد الباحث. بل اعتبر أنها قد أحدثت بذلك نقلة نوعية نسبيا فيها، وقدمت تصورًا مخالفًا للصورة التفكيكية الاختزالية التي عمرت في حقل الدراسات القرآنية الاستشراقية.

وتولى الباحث عبد العزيز النقر ترجمة مقال من اللغة الإسبانية عن المستشرق الاسباني الكبير "مغيل أسين بلاثيوس" كتبه المستشرق الإسباني المعاصر "رفاييل رامون غيرّيرو". وقد خصص غيريرو هذا المقال لإبراز قيمة وإنجازات بلاثيوس في حقل الدراسات الاستشراقية المهتمة بالفلسفة الإسلامية أساسًا، وبالفلسفة الأندلسية بوجه أخص. وتضمن ذلك استعراض أبرز الأبحاث والتحقيقات التي تناولت الفلسفة الإسلامية، التي ركزت بشكل أخص، باستثناء دراساته عن الغزالي مجال تخصصه الأول، على الفكر الفلسفي والكلامي الأندلسي وأبرز رجالاته من أمثال: ابن طفيل وابن رشد وابن طملوس وابن مسرة وابن حزم وابن السيد البطليوسي.

ومن المواد في هذا العدد، مقالان: أحدهما للباحث مصطفى اليربوعي بعنوان "معالم منهج الوسطية في فقه التنزيل" انشغل فيه باستثمار منهج الوسطية في الفقه، خاصة في تنزيل الأحكام الفقهية. وقد سعى إلى إبراز أهمية الوسطية في التنزيل كما في الاستنباط الفقهي، مشيرًا إلى عدد من الفوائد المتحققة بمراعاة هذا المنهج والانحرافات التي يمكن تجنبها بذلك. وقد أبرز الباحث ماهية هذا المنهج والقيم التي يشملها، وارتباطه بضرورة الفهم السليم للواقع. كما نبه إلى أن الدعوة إلى تبني هذا المنهج لا يعني أنه لم يكن معتمدا في

سابق أعمال الفقهاء السابقين، إنما يقصد بذلك الدعوة إلى إعادة تبنيه وتطويره بتطوير فهمنا للواقع المتجدد والصيغ التنظيمية الكفيلة بالتنزيل الأمثل للشريعة الإسلامية الوسطية؛ والثاني للباحث سفيان البطل، الذي تضمن تحقيقًا ودراسة لنص "رسالة في المنطق" للمنطقي قاسم بن صلاح الخاني (ت. 1109هـ)، وهي رسالة في المنطق لأحد المناطقة المتأخرين. وقد قام الباحث بدراسة تقديمية للنص، تضمنت استعراضًا تاريخيًا لتطور المنطق العربي وللنقد الموجه إليه في الثقافة الإسلامية وللإشكالات التي طرحت في علاقته بمختلق عناصر الثقافة الإسلامية. وبعد ذلك استعرض الباحث الموضوعات المدروسة في الرسالة، وهي مباحث ومسائل تقليدية في المنطق، مع تنبيهه على تشابه في الأسلوب بين الخاني وابن تيمية.

وينشر، في هذا العدد، ترجمة لدراسة في مجال الإبستيمولوجيا المعاصرة للفيلسوف "ديفيد أنيس" بعنوان "نظرية سياقية في التبرير المعرفي". وتولاها مع التقديم لها الباحث المصري محمد "سيد سلامة". ويتضمن المقال، كما يظهر من عنوانه، اقتراحًا نظريًا لصاحبه في التبرير المعرفي، وهو اقتراح ينتمي إلى المدرسة السياقية في الإبستيمولوجيا، وهي التي تقرر أهمية السياق في المعرفة وتبريرها، في مقابل النظريات الجوهرية الأخرى مثل النظرية الأساسية والنظرية الاتساقية. مدار النسخة السياقية التي يقدمها أنيس حول أهمية الشروط الاجتماعية وسياق المسألة لتبرير الاعتقادات والقضايا المعرفية في وجه الاعتراضات الحقيقية الموجهة إليها. وقد قدم الكاتب عرضًا لنظريته مع الأدلة والأمثلة المعززة لها، بالإضافة إلى دفعه لاعتراضات وجه إلى المقاربة السياقية عامة، والتي يمكن أن تورد على صيغته الخاصة منها.

ويأتي معنا في هذا العدد تقرير أعده الباحث يوسف عكراش حول أعمال ندوة بعنوان "مستقبل الدين والتدين في ضوء التحديات المعاصرة"، الذي نظم بمدينة وجدة المغربية، يومي 24-25 ذو القعدة 1443هـ، الموافق لـ 24-25 يونيو 2022م.

وختامًا: يتضمن العدد بالإضافة إلى ما سبق حوارًا ماتعًا مع فضيلة العلامة الأصولي الشيخ مولود السريري حول: "الإشكالات المعاصرة لأصول الفقه" وقد استفاض الشيخ في الجواب عن الأسئلة مبينًا كثيرًا من إشكالات يطرحها بعض المعاصرين حول الفقه وأصوله مثل دعاوى التجديد ومكانة المقاصد، وموقع علم الأصول من الشريعة، ومدى انسجام الفقه وأصوله مع بنية الشريعة العامة، وكذلك ما يتعلق بأنظار بعض الناس وكلامهم حول مفهوم المصلحة، وغيرها من المساحات التي جرى فيها الحوار.